المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الدراسات العليا
المعهد العالي للدعوة الإسلامية

كلية الدعوة والإعلام
وكالة الكلية للدراسات العليا والبحث العلمي
قاعة الرسائل العلمية
نسخة
لاتعار

المنهج الإسلامي لبناء المسلم المعاصر

رسالة لنيل درجة الماجستير من
المعهد العالي للدعوة الإسلامية

٧٨٠٩

إعداد الطالب
زكريا عابدين عثمان محمد

إشراف الدكتور
محمد صالح محي الدين

العام الجامعي ١٤٠٢-١٤٠٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

" الباب الأول "

المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة ..

مقدمة الرسالة :

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وبعد ، فان من نعم الله الكثيرة علينا ، أن هيأ لنا الظروف لنكون طلابا بالمعهد العالي للدعوة الاسلامية بالرياض ، ونتصل بأساتذة أجلاء ، نأخذ من علمهم ، ونقتدي بهم في الأخلاق والسلوك ، ونسير على منهج سلفنا الصالح . وحيث وفقني الله تعالى واخترت التخصص في قسم الدعوة والاحتساب ، وانتهت الدراسة التمهيدية بهذا القسم ، كان لزاما عليّ أن أقدم بحثا متكاملا في موضوع من المواضيع المتعلقة بالدعوة أو الحسبة ، وقد وقع اختياري على موضوع رجوت أن أبذل جهدي الممكن ، وأنفع به نفسي واخواني المسلمين ـ وهذا الموضوع هو :

المنهج الاسلامي لبناء المسلم المعاصر .

(أ) أهمية الموضوع وسبب اختياره :

ان الأمة المسلمة لها هوية متميزة ، وذلك أنها أمة عقيدة ودعوة وهذه الهوية هي التي تحدد مهمتها ورسالتها . فمهمتها اذن هي المحافظة على هذه العقيدة نقية صافية في القلوب والتقيد بها قدر الامكان ، وابلاغها لكافة الناس هادفة من ورائها اخراج الناس من الظلمات الى النور ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن عبادة العباد الى عبادة الله تعالى وحده .

والقرآن الكريم جاء ومن أهدافه تربية جيل من الناس يتحمل أمانة التبليغ ، تبليغ الرسالة الخاتمة ـ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الى البشرية كلها ، جاء ليربيهم تربية سوية توافق الفطرة البشرية وتتواءم مع النفس الانسانية ، يربيه قلبا وروحا ،وجسدا وعقلا ، وخلقا وسلوكا ، ويسمو ويتدرج به حتى يحيله قرآنا متحركا ،

تأسيا برسول الهدى صلى الله عليه وسلم .

ثم جاء ليصنع من أمة القرآن (أمة عزيزة أبية لا تذل ولا تضعف ، ولاتهن ولاتجبن، تجاهد أعداء الله وأعداء الانسانية ، وتحقق خلافة الله على الأرض كما أمر الله .

وقد وعى الجيل المثالي من المسلمين تلك المهمة وهذه الأهداف ، وعلموا أن المسلم هو من استسلم لأحكام الله كلها تحقيقا لقول الله تعالى : (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) [1] ، وفهموا الاسلام فهما شاملا كاملا سليما بحيث ماكان يخطر على بال أحدهم أن تكون هناك قضية يحتكم فيها لغير الله ، أو أن هناك قضية ليس لله تعالى فيها حكم : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) [2] ، فكان تفاعلهم مع كل جزء من أجزاء الاسلام تفاعلا كاملا ، فحققوا بهذا المفهوم العبودية الكاملة لله تعالى في نفوسهم وعرفوا معنى : لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فالتزموا حدودها كما سمعوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأوه يفعلها ، وحرصوا على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم ، وتفاعلوا مع أخوة الايمان : (انما المؤمنون اخوة) [3] ، فكان ولاؤهم للمؤمنين من دون الكافرين ، وتفاعلوا مع فريضة الجهاد ، فانتشروا في الأرض ينشرون الأمن بعد الخوف ، والنور بعد الظلام ، والهدى بعد الضلال ، فاستقبلتهم الأرض شرقيها وغربيها أحسن استقبال ، واقامتهم على ظهرها قادة ومعلمين للأمم .

ثم كانت لهذه الأمة انفصالات عن هويتها الحقيقية ، أورثت خللا في ذاتيتها ، وفي أدائها لمهمتها المنوطة اليها وهي أمانة تبليغ الدعوة،فاضطربت في سيرها ، وصارت تابعة بعد أن كانت قائدة ، وبدا عليها الضعف والذلة والمسكنة بعد أن كانت قوية عزيزة يخشى جانبها الأعداء ، وافتتنت بمنهج أعدائها في التصور والحياة ، فصاحب ذلك انهزام داخلي ، وتقليد ومحاكاة في كل شيء ، وفقدان للثقة بالنفس، وكانت آثار

---

١ سورة النساء الآية ١٢٤
٢ سورة النحل الآية ٨٩
٣ سورة الحجرات الآية ١٠

ذلك كله ، أن تخلفت عن مواكبة العصر ، وأصبحت في المؤخرة بعد أن كانت في المقدمة .

ولكن رغم ما أصاب الأمة المسلمة من ضعف ، ورغم ضراوة خطط الأعداء في الكيد بها لابقائها بعيدة عن هويتها الأصيلة ، فان الحل مازال بأيدي المسلمين ، وسيظل كذلك مادام كتاب الله موجودا بينهم ، ومادامت تجربة الجيل القرآني الأول ماثلة وحيّة في النفوس .

ان أول سؤال يمكن أن يثور في نفس المؤمن المخلص الحريص على دينه : كيف السبيل لاعادة الشخصية الاسلامية لهذه الأمة ، لتؤدي رسالتها ومهمتها التي اختارها الله لها ؟!!

وأرد على هذا التساؤل بقولي : كيف استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون من عرب الجزيرة العربية أمة تحمل رسالة ، وتنشئ حضارة وتصنع تاريخا ، كأنه ضرب من الأساطير ؟!

وكيف خلقت رسالة الاسلام من الفرقة وحدة ، ومن الضعف قوة ، ومن الأمية علما ، ومن البداوة حضارة ، ومن الحفاة العراة خير أمة أخرجت للناس ؟!

ذلك سر هذا الدين ، ومنهجه - الذي لايدانيه منهج - في تقويم النفوس والأمم وأثر تطبيقه في الأفراد والجماعات .

ولابد لذلك من العودة الى الرسالة الخالدة ، والأخذ من معينها الذي لا ينضب لوضع الأسس والقواعد التي على أساسها تبنى الأفراد والجماعات والأمم .

والعناصر الأساسية لهذه الرسالة الخالدة في التربية والبناء هي : العقيدة والعبادة والأخلاق . فالعقيدة هي أصل الفطرة التي تنحرف بدونها الفطرة ، ولا سبيل الى تقويم الاعوجاج الا بالعودة الى العقيدة الصحيحة مرة أخرى .

والعبادة : هي الوسيلة للتربية الورحية ، وهي الوسيلة التي تصل العبد بخالقه . أما الأخلاق : فهي ترجمة تلك المعاني جميعها في واقع السلوك والحياة .

ان هدف هذا الدين هو اقامة مجتمع انساني نظيف ، نظيف العقيدة ، نظيف المشاعر والسلوك ، يبدأ بالفرد فيبرده الى فطرته السليمة ، ويربي فيه الضمير المرهف الحساس ، ويروضه على الخلق الفاضل الكريم ، ويقيم الأسرة على المودة والفضل والرحمة ويتعهد النسل بالرعاية والتعهد حتى يشب عن الطوق ، ويكوّن المجتمع على الطهارة والحب والتكافل والعدل ، وعلى أساس الوفاء والحق .

وبناء الأفراد على هذا الوجه ، لايعني مفهومه المألوف ، فهو لا يقتصر على المسجد وأماكن الدرس والتعليم ، ولايختص بالعبادة دون السلوك والأخلاق الكريمة ، أو يهتم بالفرد وحده دون تقويم المجتمع ، أو يعنى العقيدة ويهمل العمل وتزكية النفس، انما يشمل كل هذه الجوانب مجتمعة .

وهذا ماحاولت بيانه وتوضيحه من خلال سطور هذه الرسالة .

(ب) مشكلات البحث :

أولا : ان أكثر مايواجه الباحث في موضوع معين هو ندرة المصادر التي تعالج البحث ، ولكن مشكلتي كانت في كثرة المراجع التي تعالج ذات المواضيع التي أدرجتها في مخطط بحثي واختلاف هذه المصادر في طرق علاجها للموضوع، فكانت مهمتي عسيرة جدا ، حيث يتطلب البحث مني محاولة غربلة هذه المصادر ـ القديمة منها والحديثة ـ واستخراج مايتمشى مع منهج بحثي ، وقد أجهدت نفسي في ذلك كثيرا ، فكنت أقلب عشرات المصادر ، وأتصفح مئات الصفحات ، ولا أظفر منها بشيء يشفي غليلي ويتمشى مع ما أريد .

ثانيا : ان موضوع بحثي هو ـ المنهج الاسلامي لبناء المسلم المعاصر ـ وكل من يلقي نظرة على هذا العنوان ، يتبين له أن الموضوع يشمل الاسلام كله ، فكل ماجاء في القرآن هو توجيهات للمسلم في مجال العقيدة والعبادة والأخلاق،

وتفاصيل الشريعة التي تتطلب علما وعملا ، ومادام الموضوع يشمل الاسلام كله فانه يمكن أن يعالج من زوايا مختلفة ، بحيث لو أعطي نفس الموضوع لعشرة من الباحثين لعالج كل منهم الموضوع من زاوية تختلف تماما عن الآخرين ، لذلك فان أكبر مشكلة واجهتني هي كيف أبدأ الموضوع ، وماهي أفضل الطرق لعلاج هذا الفصل أو ذاك ؟ وهل أضع اطارا عاما لمنهج البناء أم اختار أسلوبا معينا لبناء المسلم ، وأبذل جهدي لابراز تفاصيل ذلك الجزء ، وبعد تقليب للأمور ، استقر رأيي على معالجته بوضع الأسس التي يقوم عليها بناء المسلم في الاسلام ، والوسائل التي - أعتقد أنها - لو اتبعت يمكن أن تساعد في بلورة تلك الأسس والقواعد في مجال التصور والسلوك والواقع ، فان وفقت فمن الله تعالى ، وان كان غير ذلك فعزائي انني بذلت ما أملك من قدرة وطاقة .

(ج) مكان البحث من البحوث السابقة في الموضوع :

مادام المسلمون يتلقون توجيهاتهم وأوامرهم ونواهيهم من معين واحد - هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - فلن يختلف المسلم في أيّ زمان ومكان عن المسلم في زمان ومكان آخر من حيث التصور والاعتقاد والسلوك ، ولكن قد يختلف المسلمون في مستوى التزامهم وخشيتهم وتقواهم بقدر التفاوت الموجود بين الأفراد في التلقي والالتزام .

وحين أتحدث في موضوعي هذا عن المسلم المعاصر ، انما أقصد به ذلك المسلم العادي ، ولا أقصد ذلك المسلم الذي وعى دينه الوعي الحق ، ومارسه الممارسة العملية ، وعاشه كما ينبغي أن يعاش ، بل أقصد أولئك الملايين والملايين في هذا العالم الاسلامي أجمع ، الذين يحملون أسماء مسلمة ، ويحملون أحيانا نوايا حسنة ولكنهم منصرفون عن دينهم بسبب الجهل وسوء التوجيه ، وبسبب جهود أصحاب التيارات الفكرية والعقائدية المنحرفة المعاصرة التي لا تنفك تسعى جهدها لصرف المسلمين عن دينهم ، فالمسلم المعاصر بهذا المفهوم قد فقد ذاته وهويته ، فحاولت أن أتلمس الخطوط العريضة - التي لو اتبعت - يمكن أن تسهم في بناء شخصية مسلمة سوية وعلى أسس اسلامية صحيحة .

انني أعترف أنني لم آت بجديد في الموضوع ، ولم أكن أفكر في ذلك ـ ولكن شيئا واحدا كان يشغلني عند اختيار الموضوع وبعده ، وهو أن المسلم المعاصر قد فقد ذاته وهويته ولابد من تضافر الجهود لاعادة بنائه على أسس اسلامية سليمة لتمكينه من عبادة ربه على الوجه المشروع ، والوقوف أمام التيارات الفكرية المنحرفة ومكايد الأعداء ليتلمس طريقه وسط الظلام والضلال الى النور والهدى . وقد قصدت في علاج الموضوع على هذا النحو المعروض به الى شيئين :

الأول : محاولة جمع الشتات مما كتب في المواضيع الأساسية عن الاسلام في مكان واحد والتنبيه الى أهمية كل منها في بناء الشخصية السوية للمسلم .

الثاني : محاولة البيان ـ ومن خلال العرض ـ أن الاسلام الحنيف يتضمن منهجا فريدا في البناء والتربية ، وأن موضوعاته مترابطة،تكون عقدا متكاملاومترابطا ،فهو منهج وطريق صالح لبناء الأفراد والجماعات .

أما الخلل الذي قد يجده القارىء في هذا البحث في الأسلوب والاستدلال والعرض والصياغة ، فناتج في الأساس من قلة البضاعة التي بحوزتي ، ثم الى ضعف المقدرة ، وقلة الخبرة عند باحث مبتدىء مثلي ، ثم الى أهمية الموضوع المعروض للبحث وصعوبة التسلسل في ذكر حقائقه والربط بينها بصورة منسقة ومنسجمة .

(د) منهج البحث :

لقد بذلت وسعي ليكون هذا البحث موجزا قدر الامكان ، وخاليا من فضول الكلام ، جامعا في نفس الوقت لأهم أسس ووسائل وأساليب بناء الشخصية المسلمة لذا كان اهتمامي كثيرا وبالغا في بعض المواضيع ذات الأثر المباشر ، كالقاعدة الايمانية ـ عن غيرها من المواضيع التي تعتبر وسيلة من وسائل البناء غير المباشر .

وقد جمعت فيه كثيرا من المواضيع المتناثرة في الكتب والدراسات والأبحاث حول الأسس والوسائل والأساليب المباشرة وغير المباشرة المتعلقة بتكوين الشخصية

السوية ، وتطرقت خلالها الى بعض المسائل الفقهية ـ دون الدخول في تفصيلات وتفريعات الفقهاء ـ مع الاستعانة ببعض ماتوصل اليه العلماء من خلال تجاربهم في توجيه الانسان نحو السلوك الاسلامي .

وكان أكثر اعتمادي ـ بعد الله وبعد الأصليين النيرين كتاب الله وما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ على المصادر الحديثة لقرب منهج موءلفيها للنهج الذي انتهجته ، وقد حاولت ـ قدر الامكان ـ توحيد نسخ مصادر ومراجع البحث بالاعتماد على طبعة واحدة للكتاب ، ولم أعتمد على طبعتين مختلفتين كمصدر واحد الا نادرا حين يتعذر حصول نفس النسخة مرة أخرى .

ويتألف هذا البحث من مقدمة ، وثلاثة أبواب :

أما الباب الأول وموضوعه ـ المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة ـ فقسمته الى فصلين ، اقتصر الأول منهما على منهج البحث العلمي في الاسلام، وقد حاولت من خلال مباحثه اثبات أن المسلمين هم أول من أصلوا أصول وقواعد البحث العلمي على أساس الاستقراء والاستنباط والتجربة والمشاهدة وأن منهج بيكون الاستقرائي الذي بنى عليه الغرب منهجه العلمي أساسه منهج الأصوليين من العلماء المسلمين في الاستدلال ، وقصدت من ايراد هذا الفصل على النحو المذكور ، الى شحذ همم الشباب المسلم ، ليحذوا حذو الأولين من المثابرة والجد في البحث والتنقيب واستخلاص الحقائق ، ويكونوا روادا كما كان سلف هذه الأمة الخيرة .

وسرد الفصل الثاني منه تاريخ نشأة منهج البحث العلمي في الغرب وتطوره وقواعده وفق الرأي السائد عند الغربيين أنفسهم ، وفي المبحث الأخير منه حاولت تقويم بعض المفاهيم الخاطئة التي نشأت في الغرب من منطلق قواعد البحث العلمي الحديث ، وبينت وجه الخطأ وفق التصور الاسلامي لها وفي حدود قدراتي المتواضعة .

وفي الباب الثاني وعنوانه ـ قواعد بناء الفرد المسلم ـ بينت القواعد الأساسية التي يقوم عليها بناء الشخصية المسلمة وجعلته في ثلاثة فصول :

في الفصل الأول بينت أن الاسلام استسلام مطلق لألوهية الله وحده ، ثم انصياع لأوامره ونهيه وقضائه ، وأن هذا الاستسلام لايرتكز الا على يقين كامل في القلب ، ولا يعمر الايمان الحقيقي الا بعد الفهم الصحيح لتفاصيل هذا الايمان ، فاذا استقام الايمان على هذا النحو ، خاليا من كل مدخل من مداخل الشرك ، نقيا من الدرن والكدر، تحققت مظاهر الاستسلام كلها في كيان الانسان لأوامره ونواهيه وسائر أحكامه وتشريعاته ، ومثلت لأثر الايمان في الانسان بأمثلة حية من حياة سلفنا الصالح ، رجاء أن يقتدى بهم في تلك الأوجه وغيرها من الأمور المتعلقة بحياة الانسان .

والفصل الثاني منه جعلته تحت عنوان القاعدة التقليدية ، حاولت من خلاله بيان مفهوم العبادة في الاسلام وأهميتها والأسس الصحيحة للعبادة ، والوظائف الأساسية لها ، وكيف تساعد العبادة من خلال وظائفها في بناء الشخصية المسلمة .

أما الفصل الثالث فقد جعلته بعنوان القاعدة الأخلاقية ، وفيه بينت مفهوم الأخلاق الاسلامية وخصائصها ووسائل اكتسابها وتقويمها ، وفي المبحث الأخير منه بينت كيف يتم بناء المسلم من خلال تقويم أخلاقه ، وأفضل الوسائل المؤدية لذلك .

وبينت في الباب الثالث وعنوانه ، وسائل بناء شخصية المسلم ـ أهم الوسائل التي أعتقد أنها تساعد في ترجمة معاني العقيدة والعبادة والأخلاق الى واقع عملي معاش في السلوك والحياة . وقد تفرع هذا الباب الى خمسة فصول :

ذكرت في الفصل الأول وعنوانه ـ بناء الشخصية السوية من خلال الأسرة ـ كيف أن الأسرة وسيلة ضرورية وهامة من وسائل بناء شخصية المسلم . ووضحت من خلال مباحثه على مفهوم الزواج وأهدافه ، والحقوق الشرعية التي كفلها الاسلام للأبناء ، وكيف تساعد تلك الحقوق على ارساء قواعد النشأة السوية للطفل برعايته وحفظ حقوقه من جميع الجوانب من قبل أن يهل من بطن أمه ، ثم المسئولية الملقاة على عاتق الوالدين في رعاية الطفل وتنشئته وتعهده بالتربية والتوجيه حتى يشب عن الطوق .

وفي الفصل الثاني من هذا الباب ، وموضوعه البناء من خلال التربية والتعليم

بينت مفهوم التربية الاسلامية وأهدافها وفلسفتها ، ودور المدرسة الاسلامية في التربية والتعليم ، ومزالق التعليم المنهجي الحديث في العالم الاسلامي ، وكيفية علاجها ووضحت أن بناء الشخصية المسلمة السوية من خلال المدرسة يمكن أن يتم عن طريق الاهتمام بالمعلم اهتماما يليق بمكانته ومهنته ، وباعادة النظر في المناهج الدراسية والعناية بتعليم المرأة وفق التعاليم الاسلامية ، وضرورة التركيز والعمل على تعميق المفهوم الاسلامي في التربية والتعليم .

أما الفصل الثالث منه وعنوانه ، البناء من خلال المسجد ، فشرحت في مباحثه مفهوم المسجد ومكانته في الاسلام ، وكيف تعطل دور المسجد في المجتمع المسلم وأهمية احياء رسالة المسجد باعادة الحياة العلمية اليه ، ليقوم بدوره كاملا في توجيه كافة قطاعات المجتمع المسلم من الرجال والنساء والأطفال .

وفي الفصل الرابع تحدثت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودوره في تقويم اعوجاج المسلم ورده الى الجادة ، ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعتبر من أفضل الوسائل ايجابية في اصلاح المجتمع وتقويم اعوجاجه ، وبالتالي في اصلاح حال المسلمين عامة .

وذكرت في الفصل الأخير من هذا الباب ، وهو آخر فصول هذه الرسالة ، كيفية بناء الشخصية المسلمة السوية من خلال الدعوة الى الله ، وقسمته الى مباحث ، بينت من خلالها ضرورة العمل الجماعي في الدعوة الى الله ، وشرعية العمل الجماعي ومفهومه عند السلف ومفهومه الحديث ، والقواعد التي تحكم الجماعات التي تعمل في مجال الدعوة الى الله ، ومسئولية الداعي ووظيفته وأفضل المناهج لبناء الأفراد والجماعة والمزالق التي قد تعوق سبيل العمل الجماعي في الدعوة الى الله .

وختاما أرى لزاما عليّ أن أزجي الشكر موفورا للقائمين على أمر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، والمعهد العالي للدعوة الاسلامية ، الذين أتاحوا لي الفرصة للدراسة بهذا المعهد ، وتقديمهم العون المادي والأدبي بسخاء لجميع الدارسين به .

كما وأرجو أن توفق جهودهم في تنشئة جيل من الدعاة يحملون أمانة هذه الدعوة عن وعي وادراك لما يحاك حولها من كيد ومكر ، وادراك لظروف الحياة الحديثة ومتطلبات الدعوة في هذه الفترة الحرجة من تاريخ أمتنا العربية والاسلامية .

ولايفوتني أن أتقدم بوافر الشكر والعرفان لأستاذي الجليل الدكتور محمدصالح محي الدين المشرف على هذه الرسالة ، الذي منحني من وقته وراحته ولم يدخر في توجيهي وزملائي الذين أشرف على رسائلهم وسعا ، وكانت لتوجيهاته السديدة فائدة عظيمة في توجيه مسار البحث ، وربط موضوعاته قدر الامكان بموضوع الرسالة .

كما أشكر سائر الأخوة الذين أسدوا اليّ العون ، وجزى الله الجميع عني خير الجزاء ، وجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم انه نعم المولى ونعم النصير ، وآخر دعوانا ان الحمد لله ربّ العالمين .

الفصل الأول

منهج البحث العلمي في الاسلام

المبحث الأول : منهج القرآن في توجيه البحث عن الحقيقة :

أ) أهمية العقل وعناية القرآن به

يتصل الانسان ـ كما يبدو من تتبع آيات القرآن الكريم ـ بنوعين من حقائق الوجود [١] :

النوع الأول : حقائق تتصل بما يمكن أن يطلق عليه ، عالم الشهادة ، أخذا من التعبير القرآني ، وهو العالم المحسوس ، أو الكون ، أو الطبيعة ، أو ملكوت السموات والأرض .

النوع الثاني : حقائق تتعلق بما يمكن أن نطلق عليه : عالم الغيب ، ويشمل من الوجود مالا تصل اليه الحواس ، ولا يقع تحت التجربة ، ولا يدرك العقل حقيقته ولا تفاصيله .

والقرآن يدلنا على أن ثمّة وسيلتان يصل بهما الانسان الى معرفة حقائق الوجود والكون :

احداهما : العقل الذي خلقه تعالى فيه ، ليدرك به حقائق العالم المحسوس وان كان ادراكه لهذا العالم نفسه ناقصا غير كامل ، ومتقدما تقدما جزئيا ـ تحقيقا لقوله تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق) [٢] .

أما الوسيلة الثانية لمعرفة حقائق الوجود فهي الوحي الى الأنبياء الذين هم صفوة مختارة من البشر ، خصهم الله بمعرفة الحقيقة الالهية ، وبمعرفة حقائق

---

١ انظر محمد المبارك ، نظام الاسلام ـ العقيدة والعبادة ص ٨٣-٨٤

٢ سورة فصّلت الآية ٥٣

العالم الغيبي ، غير المحسوس ، لكشفها لبني آدم وارشادهم اليها ، وتنمية الاستعدادات الروحية فيهم . فوظيفة الأنبياء والرسل اذا بالنسبة للعالم الغيبي ، كوظيفة العقل بالنسبة الى العالم المحسوس وهي الكشف عن حقائق الوجود [١] . وبما أن العقل هو الأداة التي يتحقق بها الانسان من صدق ادعاء النبوة ، فقد كان خطاب الأنبياء للناس ودعوتهم الى الايمان بنبوتهم عن طريق العقل وقناعته . وعلى هذا سيكون البحث مركزا على العقل باعتباره وسيلة الانسان لمعرفة حقائق الكون والوجود .

ومن مزايا القرآن الكثيرة ، مزية واضحة ـ يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين، لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتا واضحا ـ تلك المزية هي التنبيه بالعقل، والتعويل عليه ، في أمر العقيدة ، وأمر التبعة والتكليف .

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله [٢] : "ففي كتب الأديان اشارات صريحة أو مضمونة الى العقل أو التمييز ،ولكنها تأتي عرضا غير مقصودة ، وقد يلمح فيها القارىء بعض الأحايين شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منه ، لأنه مزلة العقائد ،وباب من أبواب الدعوى والانكار ...

"ولكن القرآن الكريم لايذكر العقل الا في مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه ، ولا تأتي الاشارة اليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية ، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها موءكدة جازمة باللفظ والدلالة ، ولا تتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها الموءمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على اهمال عقله ، وقبول الحجر عليه ، ولايأتي تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التي شرحها النفسانويين من أصحاب العلوم الحديثة ..... بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل مايتسع له الذهن الانساني" .

---

١ انظر نظام الاسلام ـ العقيدة والعبادة ص ٩٦

٢ عباس محمود العقاد ، التفكير فريضة اسلامية ص ٨٢٩-٨٣٠ موسوعة بحوث علمية مج ٥ الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

والقرآن الكريم قد أقام دعوته على تكريم الانسان الذي ميّزه الله بالعقل دون سائر المخلوقات ، فهو لا يقبل أن ينضوي تحت لوائه أعمى أو مقلد ، ولا يرضى أن ينتسب اليه أحد الا بعد تفكير سليم ، بعيد عن سائر المؤثرات ، وينهى عن اتباع مالم يقم به علم يستند الى حجة سمعية أو رؤية بصرية أو براهين عقلية ، وهي طرق الاستدلال الممكنة للانسان، ووسيلتها الأساسية هي العقل .

(ب) توجيه القرآن العقل الى الكون :

نظر القرآن الكريم الى الكون ، بكل مافيه من سموات وأرضين ، وأفلاك وشموس ، ونبات ، وجبال ، وكائنات ، ووهاد ، وكائنات حية وانسان على أنه مخلوق الله تعالى، فهو لم يوجد نفسه ، ولم يكن نتيجة تطورات ، أو تغيرات طبيعية فيه ، وهو لم يوجد صدفة ، وانما خلقه الله ، وقصد ايجاده على هذا النحو المعيّن لهدف وغاية [1] .

ولكن القرآن الكريم لم يلق بهذه الحقيقة الى الناس مجردة عن الدليل ليؤمنوا به ، بل انتهج نهجا فريدا ، مهّد له بتحرير العقل من كل مايعوق تقدمه وأداء وظيفته – ذلك لأن العقل اذا تعطل انحسرت المعرفة ، وضمر العلم ، وحلت الخرافات والأوهام والتقليد ، فتسود الفوضى بدلا من النظام ، والضلال بدلا من الهدى والرشاد – ثم أورد مشاهد الطبيعة بأسلوب مثير يدعو الى التأمل والتدبر فيما خلق الله في هذا الكون، وارتباط الانسان بخالق الكون ، وبالهدف الأسمى من خلقه وهو عبادة الله وحده دون سواه من المخلوقات والأنداد .

يقول الله تعالى في القرآن الكريم : (ان في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) [2] .

---

١ انظر نظام الاسلام – عقيدة وعبادة ص ٣٨

٢ سورة البقرة آية ١٦٤

ويقول عز وجل : (وهو الذي يحي ويميت وله اختلاف الليل والنهار ، أفلا تعقلون) [١] .
ويقول جل وعلا : (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) [٢] .
وقال تعالى : (قال ربّ المشرق والمغرب ومابينهما ان كنتم تعقلون) [٣] .
وقال سبحانه : (واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) [٤] .

باستعراض الآيات السابقة ، نرى أن القرآن الكريم وضع العقل وجها لوجه أمام حركة في الطبيعة ، تثير النفس ، وتدفعها الى التأمل والتصور ، والتخيل، وهذه الحركة تبدو في ثنائية الطبيعة ، في الليل والنهار ، في الشروق والغروب ، في الحياة والموت. فالقرآن يشد الانسان الى هذه الحركة ، ويدعوه الى تتبعها ، وفهم ماتنطوي عليه من أسرار الخلق والابداع [٥] .

انه يبدأ بعض الآيات بقوله تعالى : (ان في خلق السموات والأرض) ، والخلق هو الايجاد ، وايجاد السموات التي تحيط بالأرض على هذا الشكل الرائع من الجمال والدقة ، أمر جدير بالتأمل والدراسة العميقة ، ثم وجود الأرض وماعليها وارتباطها بما حولها من كواكب أيضا قضية تدفع الذهن الى التفكير العميق [٦] .

تأتي بعد ذلك ظاهرة أخرى وهي : (اختلاف الليل والنهار) ، واختلاف تعبر عن تلك الحركة الدورية اليومية ، حيث يجيء الليل خلف النهار ، ويجيء النهار خلف الليل، ليقف الانسان أمام عملية بالغة الدقة والنظام ، على مدار العام لايكاد الفلك في

---

١ سورة المؤمنون آية ٨٠
٢ سورة النحل آية ١٢
٣ سورة الشعراء آية ٢٨
٤ سورة الجاثية آية ٥
٥ انظر محمد علي الجوزو مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٥٧ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٠م مطبعة دار الميلايين بيروت .
٦ انظر المصدر السابق ص ٥٨

دورته يخطىء أو يخل ، بل هو منضبط ، ملتزم كل الالتزام ، منسق كل التنسيق، مستمر لا يتوقف [١] .

حقا ان القرآن ليس كتابا علميا ، يبحث في الكيمياء والفيزياء ، ويحلل نظريات العلم ، ولكنه يطرح القضايا الكلية ، ويجعل منها منطلقا للبحث والتقصي، لذلك نجد فيه بكثرة الآيات التي تتحدث عن (خلق السموات والأرض) ، وعن (اختلاف الليل والنهار) وبتعابير مختلفة وصور متعددة ، لأن (لانسان كل انسان يستطيع أن يتأمل هذه الظواهر لأنه يعيش معها وتعيش معه ، فأسلوب القرآن يتفق مع الفطرة الانسانية .

بعد أن بيّن القرآن الكريم الظواهر الطبيعية ومابينها من تضاد وتقابل وبرهن على قوة الخلق والابداع ، ووجه العقل البشري للتأمل والتدبر فيها ، للبحث عن حقيقة صانعها ، عرج الى برهان آخر من البراهين الدالة على قدرته على الخلق والتدبير وهو الحياة والموت .

ان ظاهرتي الحياة والموت تجري أحداثهما فوق كوكبنا الأرضي منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا ، يولد الانسان ويموت ، وبين مولده ، وموته تاريخ الحياة الانسانية على هذه الأرض ، فالحياة ظاهرة تستحق التأمل ، والموت ظاهرة تستحق التأمل ، ولكن وجودهما معا هما أعظم معجزة تتحقق بالنسبة لاستمرار الجنس البشري ، ونموه وتكاثره . وهذه المعجزة هي في المعادلة نفسها ، وهي أن الانسان يحيا ويموت ، وحياته ضرورة حتمية ، وموته ضرورة حتمية ، وكلاهما حكمة وغاية في نفس الوقت [٢] .

هاتان ظاهرتان جديرتان بالتأمل والدرس ، فما هي الحكمة من وجودهما على هذا الشكل ؟ وماهي الغاية ؟ وماهي القوة التي تقف وراء ذلك ؟ القرآن يجيب [٣] : (وهو الذي يحي ويميت) ويختم الآية بهذا التساؤل [٤] : (أفلا تعقلون) ؟ !

---

١ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٥٨

٢ انظر المصدر السابق ص ٦٠

٣ ، ٤ سورة المؤمنون الآية ٨٠

يواصل القرآن توضيح ظاهرتي الحياة والموت ، فيقدم لنا صورا من صور الاحياء والاماتة ، أو الاحياء بعد الاماتة ، لأن الظاهرتين غير قاصرتين على الانسان وحده ، بل هما القاعدة التي يندرج تحتها كل جنس من أجناس الأحياء وكل نوع من أنواعه ، سواء كان حيوانا أو نباتا ، وفيما يلي نستعرض بعض الآيات التي تتحدث عن ذلك ، وتختم بالفعل (تعقلون) :

(ب) ظاهرة الحياة النباتية وتوجيه العقل اليها :

لو أحصينا العناصر التي يذكرها القرآن في مجال الحديث عن الحياة النباتية لوجدناها تتألف مما يلي :

الأرض ، الماء ، الرياح ، السحاب ، القطع المتجاورات ، الجنات ، الزرع ، ثمرات النخيل والأعناب ، اختلاف الطعم والذوق مع اختلاف الأطعمة .

والملاحظة الأولى أنه ينسب الحياة والموت الى الأرض قال تعالى : (اعلموا ان الله يحي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون)[1] وهو يريد التنبيه الى ظاهرة انبات الزرع الأخضر من الأرض الجامدة ، فاذا الحياة تتمثل في تلك الألوان المختلفة من الشجر والثمر والخضرة . والحكمة التي ربما يريد القرآن أن يدفعنا للبحث عنها هي كيف انبت الجماد نباتا حيّا ، فالأرض هي أم النبات تحمله في بطنها بذرة ضئيلة أو نبتة صغيرة ، ثم تخرجه بعد ذلك زرعا مختلفا ألوانه ، أو شجرا باسقا ذا أشكال متغايرة وثمار متعددة ، وفوائد كثيرة[2] .

انما أصل الحياة في الأرض ، ليس تربة الأرض وحدها ، بل هنالك الماء ، والماء يكون بخارا ثم يتحول الى سحاب ، ثم تسير به الرياح ، ليسقط مطرا يسقي الأرض ، يسقي القطع المتجاورات والجنات . قال تعالى : (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان،وغير صنوان يسقى بماء واحد ،ونفضل بعضها على بعض في الأكل، انّ في ذلك

٢- انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٦٠-٦١

١- سورة الحديد الآية ١٧.

لآيات لقوم يعقلون)[١] . فالماء واحد ، ورغم ذلك تتعدد الثمار والفواكه وأطعمتها ، والعرض القرآني لهذه الظاهرة لا يعمد الى التحليل الكيمائي ، ولكنه يدعو الى مراقبة الظاهرة كما هي في شكلها الطبيعي ، وكما يراها كل انسان عالما كان أو جاهلا ، ذلك أن تأمل الطبيعة فطريا لا يحتاج الى علم وتخصص[٢] .

ويختم القرآن هذه الآيات بنفس التعبير (آيات لقوم يعقلون) . وقال عز وجل : (واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون)[٣] . أو يضيف القرآن الى آيات حرف اللام "لآيات" للتأكيد ، فيقول الله عز وجل : (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون)[٤] . أو يأتي في صيغة المفرد "لآية" ، أو يأتي بتعبير فيه صيغة التنديد والتقريع بل أكثرهم لايعقلون) ، أو صيغة الاستفهام الانكاري (أفلا تعقلون) ؟!

يقول الله عز وجل : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، ان في ذلك لآية لقوم يعقلون)[٥] وقال جل وعلا : (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله ، بل أكثرهم لايعقلون)[٦] وقال تعالى : (وهو الذي يحي ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون)[٧] وبين التأكيد والتنديد والاستفهام الانكاري ، يشعرنا القرآن الكريم من خلال الآيات السابقة اننا أمام حركة فكرية تريد أن تشير الى شيء ما . انه يفتح كتاب الطبيعة أمام الانسان ليقرأ صفحاته ، ويوجه العقول والأبصار الى بدائع صنع الله فيه ، ويدعو الى التفكر في آياته ، واستكناه أسراره وفهم نظمه ونواميسه . لقد خلق الله كل شيء وسيّره وفق

---

١ سورة الرعد آية ٤
٢ انظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص ٦١-٦٢
٣ سورة الجاثية آية ٥
٤ سورة الروم آية ٢٤
٥ سورة النحل آية ٦٧
٦ سورة العنكبوت آية ٦٣
٧ سورة المؤمنون آية ٨٠